المبحث الأول
أنواع المستشفيات وموجوداتها

دعت الضرورة القصوى ونتيجة للتطور العام الذي شهدته حواضر المدن في الإسلام، إلى تنوّع المستشفيات في تقديم خدماتها الصحية للناس، حتى غدى تنظيم المشافي من ألوع إبداعات الثقافة الإسلامية[1].

أ- المستشفيات الثابتة.

وهي مشافي العامة الثابتة البناء، وتكون في مركز حواضر المدن الإسلامية الكبرى كبغداد، ودمشق، والقاهرة، والقدس، وبعض البلدان في المغرب والأندلس[2].

تقام هذه المستشفيات في المدن الكبيرة وكان يشرف على بنائها الخلفاء والأمراء، والأغنياء، والأطباء أنفسهم وتشاركهم أيضا الأوقاف يعد أن قيامها وإنشائها اسهامة خيرية منها [3]. وكانت هذه المستشفيات تزود بكل ما يلزم الطبيب والمريض وكان يعالج كل من وقع في هاوية المرض بغض النظر عن عقيدته أو جنسه[4].

وكانت هذه المستشفيات تضم أجنحة خاصة بالرجال وأخرى للنساء و غيرها للأطفال [5].

وتعالج في هذه المستشفيات جميع العلل والأمراض الباطنية، والجراحية والعقلية، وكانت معاهد علمية لتخريج الأطباء، وقد كان هناك نوعان من الكليات الطبية؛البيمارستنات و الكليات العلمية لدراسة الطب النظري والعملي[6] .

---

(1) رسيلر، جاك، الحضارة العربية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت – باريس، 1993م، ص 198.

(2) خير الله،، أمين أسعد، الطب العربي (مقدمة في مساهمة العرب في الطب والعلوم)، المطبعة الأمريكانية، 1946م، ص 71 .

(3) التيجاني، الماحي، مقدمة في تاريخ الطب العربي، الخرطوم، 1958م، ص 43.

(4) عيسى، أحمد بك، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، ط2، بيروت، 1981م، ص 210.

(5) الواعي، الحضارة الإسلامية المقارن، ص 432.

(6) الخربوطلي، الحضرة العربية الإسلامية، ص 287.

إزدادت الحاجة إلى المستشفيات أيام الأيوبين والمماليك وخاصة أبان الحروب الصليبية[1]، ومن تلك المستشفيات المستشفى العضدي الذي قام بناه عضد الدولة البويهي في أيام الخليفة العباسي الطائع(381-363هـ /974-991م) [2]، وكان للطبيب الرازي دور في إختيار موقع المستشفى في بغداد و الذي أصبح بعد إتمام بنائها رئيساً لها [3] وضمت هذه المستشفى أمهر الأطباء والأخصائيين في الأمراض الجراحية، والباطنية، والعيون وقد بلغ عددهم إلى ما يقارب أربعة وعشرين طبيباً من ذوي الكفاءة والشهرة في العالم الإسلامي[4]. ومن أطبائها جبرائيل بن بختيشوع [5]، وابن التلميذ [6].

والمستشفى النوري الذي بناه الزنكي، وصرف في بنائه الكثير من الأموال ونظمت إدارة المستشفى تنظيماً إداريا دقيقاً، وكان هنالك سجل، وكل لوازم العلاج من الأدوية وغيرها، ولشهرته فقد أقبل عليه الناس للعلاج من العراق، ومصر وحتى الأندلس[7] والمستشفى المنصوري الذي بناه الأمير قلاوون الذي حول قصره إلى مستشفى [8] وقد جلب إلى المستشفى الأطباء من مختلف الامصار الإسلامية وكانت فضلاً عن معالجة المرضى توزع عليهم النفقات دينار للمريض كل يوم وكان في المستشفى موسيقون ليخففون عن قلق المرضى وقد بنى في داخله مسجد وبهذا عد هذا المستشفى من أجمل ما أقيم من مشافي في الشرق العربي وهو من أحد الاوقاف إذ مستند الوقفية ((وجوب مداواة المرضى على اختلاف أصابتهم وأوصافهم وسائر أمراضهم من أمراض الأجسام وأمراض الحواس خفت أو ظهرت من غير اشتراط لعوض من الأعواض..))[9].

لم تثبت رغم كثرة الوثائق التأريخية عن الأندلس ولكل مراحلها عن ظهور مؤسسة للمرضى بإسم البيمارستان، ولم نسمع عن ربض من أرباض قرطبة يدعى بربض الطب [10]، ولكن نستنتج من الإهتمام العالي بالطب والثقافة الطبية في الأندلس،وبروز عباقرة الطب على

---

(1)مصطفى، شاكر، المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت، ط1 لسنة 1408هـ /1988م، ج2 ص 649.

(2)كحالة، العلوم العملية، ص 106.

(3)الهوني، تاريخ الطب في الحضارة العربية الإسيلامية، ص 224.

(4)الشطي، موجز تأريخ الطب، ص 50.

(5)جبرائيل بن بخشيوع: هو الطبيب، ابو جبريل بختشوع بن جبريل، طبيب معروف ومشهور، كان متقدماً عند الملول خدم هلرون الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل اشتغل في بداية حياته في بيمارستان جند سابور، وكسب بالطب مالم يكسبه مثله، وكانت الخلفاء تثق بهِ أخباره مشهورة له مؤلفات كثيرة في الطب منها رسالة في الطعام وكتاب التذكرة عمله لإبنه جبريل توفي سنة (256 هـ/869م) .
ينظر: ابن النديم، الفهرست، ص 466؛ ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ص 201-209 .

(6)ابن التلميذ: هو موفق الملك امين الدولة ابو الحسن هبة الله كان اوحد زمانه في صناعة الطب، سافر إلى بلاد العجم لتعلم الطب وأصبح رئيساً لمستشفى العضدي بعد رجوعه الى بغداد له مؤلفات عديدة في الطب أشهرها، كتاب اقرباذنية وهو في ثلاث مقالات وغيرها من المؤلفات في الفلك وغيرهِ.
ينظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ص 375-376.

(7)ابن كثير، الإمام المؤرخ المحدث اسماعيل بن عمر الدِمشقي، البداية والنهاية، المعروف بتأريخ ابن كثير، القاهرة، 1932م، حوادث سنة 569، ص 304.

(8)مصطفى، المدن في الإسلام، ج2 ص 650؛ كحالة، العلوم العملية، 118.

(9)الشطي، موجز تأريخ الطب، ص 37.

(10)مصطفى، المدن في الإسلام، ج2 ص 652.

كثرتهم، لابدَ كانَ هناك مكان يتطبب في الأندلسيين كالبيمارستانات، وخاصة إذا علمنا، أن الأندلس هي أصلاً دار رباط ومرابطة دائمة على مر تأريخها، ألا يستوجب ذلك أن يكون هناك إهتمام بالمشافي وتأسسيها لتوفير العلاج لجرحى المقاتلين المدافعين عن حياض الأندلس، ثم التطور الهائل بكثرة سكان الأندلس ألا يستوجب مستشفى يعالج فيه الناس.

وقد عرف المغرب بجميع بلدانه والأندلس البيمارستانات في وقت متأخر[1] وأقيم في أخر ممالك المسلمين في الأندلس وفي غرناطة مارستان، في عهد محمد الخامس في الفترة مابين (767 – 768 هـ / 1365-1367م)، للمسلمين الفقراء المرضى، وكان عبارة عن مبنى مستطيل مكون من طابقين، له فناء رئيسي وبه بركة كبيرة تزينها نافورات الماء الذي يقف على أسدين الرخام يقفان على أرجلهم الخلفية، ويحيط بهذا الفناء أروقة من طابقين مستندة على أعمدة من الآجر، وفي النقش الذي كتب عليه أنه لم يقم منذ دخول الإسلام إلى لأندلس مثل هذا البناء [2].

أما في الأندلس فقد قيل عن مستشفيات قرطبة، أن في مدينة قرطبة وحدها خمسين مستشفى في أواسط القرن العاشر، فطغت بهذا العدد على مدينة بغداد عاصمة الدنيا آنذاك ومضرب الأمثال في عصر الخليفة العباسي هارون الرشيد [3].

ونفهم من هذا العدد الهائل من المستشفيات في قرطبة عاصمة الأندلس دل على الرقي الحضاري فيها من تطور ممارسة الطب في المشافي، لقد كان اهتمام الاطباء المسلمين أيضاً بالمرضى المجانين اهتماماً كبيراً إلى درجة أنه كان لهم مستشفى خاص بهم متوفرا فيه جميع مستلزمات العلاج الكافية لمعالجة المرضى وكانت الموسيقى والغناء من وسائل العلاج لمثل هذا الأمراض فضلاً عن المسكنات والمهدئات، وهذا يدل على تطور الطب العربي في تلك المدة [4].بحيث كانت هناك أماكن مخصصة لذوي الأمراض العقلية ومعزولة بقضبان حديدية ذلك لكي لا يتسنى لهم الاعتداء على الأسوياء من المرضى [5] على عكس مستشفيات أوربا إذ كان الجنون عندهم يعد من الأمراض الشيطانية وبهذا كان الأطباء الأوربيون يقيدون المجانين بالسلاسل ويعتمدون القسوة والضرب كأحد أساليب العلاج. وهو علاج على عكس ما يجب أن يتوافر للمريض في حالته هذه من المعاملة الطيبة والحسنة وهو أساس العلاج النفسي وكذلك العقلي [6].

ومن مأثر الحضارة العربية الإسلامية الإعتناء و الرعاية الى المجذومين بنفس الحس الطبي والإنساني وكان عزلهم عن الناس في مشافي خاصة بهم هو إحدى وسائل العلاج والوقاية من المرض ومنع انتشار العدوى وانتقالها للناس الأصحاء. وكان هؤلاء يعالجون حتى يشفوا تماماً[7] على عكس الحالة عند غير المسلمين حيث العلاج الفرنسي لمرضى الجذام هو الحرق، وحدث أن أمر أحد ملوكهم بحرق جميع المجذومين في فرنسا [8].

---

(1)عفيفي، تطور الفكر العلمي عند المسلمين، ص 186.

(2)الطوخي، الحضارة الأندلسية في عصر بنى الأحمر، ص 379؛ مصطفى، المدن في الإسلام، ج2 ص 654 ؛ عفيفي، المرجع لسابق، ص 188.

(3)هونكة، شمس العرب، 228.

(4)السامرائي، مختصر تأريخ الطب العربي، ج2 ص 431.

(5)علي، محمد ماهر عبد القادر، مقدمة في تاريخ الطب العربي، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1988م، ص 490.

(6)هونكه، شمس العرب، ص 230.

(7)خير الله، الطب العربي، ص 69.

(8)هونكه، المرجع السابق، ص 74.

وكذلك المشافي الخاصة بالسجون[1]، وطبابة الخاصة بطلاب المدارس[2].

ب – المستشفيات المحمولة

لقد عرف المسلمون نوعاً ؟أخر من المارستانات، تشبه بما نعرفه في وقتنا الحاضر بالمستشفيات المتنقلة، حيث كان المستشفى المتنقل يحمل على الجمال أو البغال مجهزة بالأدوية والأغذية والأشربة، ترافقها الأطباء والصيدلة والممرضون[3] ترسل إل المقاطعات النائية التي لا تتوفر فيها الخدمات الطبية الثابتة [4].

وهي من مأثر الطب العربي الإسلامي،اما أسباب وجود المشافي المتنقلة:

انتشار الأمراض والأوبئة[5]،وبعد بعض المناطق عن مراكز المدن الرئيسية التي تتوفر بها المشافي[6]، إستخدامها بالحروب والغزوات من قبل الجيش[7].

ج- أقسام وموجدات المستشفيات

لقد كانت البيمارستانات العربية مقسمة ومنظمة تنظيماً جيداً، وتسير وفق نظام واحد محدد ومعروف في جميع الامصار العربية الإسلامية. ومن اقسام البيمارستان التي أوجدها العرب المسلمون ظمن مفردات التطور الحضاري العربي الإسلامي:

اولاً: ردهات المرضى.

يخصص المستشفى غالباً قسمين أحدهما للذكور، والآخر للإناث كل منهما مزود بكل ما يلزم من مستلزمات طبية وخدمات صحية عديدة ابتداء من الأطباء، والصيادلة والمشرفين، والممرضين بتجهيزات المستشفى من الأسرة، والمفروشات[8]، في كل قسم من هذين القسمين هنالك قاعات قسمت على وفق الأمراض كقاعة للأمراض النسائية، وقاعة للجراحة وأخرى للباطنية وكذلك قاعة للكحالة (أمراض العيون) وغيرها [9]ويشرف على كل القاعات رئيس للأمراض الباطنية، ورئيس للأمراض النسائية، ورئيس للمجبرين، ورئيس للكحالة [10].

وكان لكل من هؤلاء رئيس يدعى برئيس الأطباء الذي يحكم على طائفة الأطباء ويأذن لهم بالتطبيب. أما الساعور[11] هو بمثابة رئيس المستشفى كلها والعاملين فيها، أما عدد الأطباء فيتوقف على سعة المستشفى وعدد مرضاه[1]. والحق بكل مستشفى حمام صحي عام.

---

(1)ابن ابي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 221؛ السرجاني، قصة العلوم الطبية، ص 77.؛ عبد الباقي، أحمد، معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991م، ص 531.

(2)الديوه جي، سعيد، دور العلاج والرعاية في الإسلام، المجلة الطبية الموصلية، الموصل، العدد الثالث، ج1، 1966م، ص 72.

محمد، تاريخ الطب عند العرب، ص 319.

(3)عفيفي، تطور الفكر العلمي، ص 187.

(4)ابن ابي أصيبعة، المصدر السابق، ص 103.

(5)عيسى، تأريخ البيمارستانات، ص 11.

(6)الواعي، الحضارة الإسلامية المقارن، ص 433؛ كحالة، العلوم العملية، ص 106

(7)الحلو، المرجع السابق، ص 41.؛ السرجاني، قصة العلوم الطبية، ص ص 77-78

(8)عيسى، تأريخ البيمارستانات،، ص 11.؛عفيفي، تطور الفكر العلمي عند المسلمين، ص 187.

(9)القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1955م، ج2 ص 467.

(10)الشطي، موجز تأريخ الطب، ص 47؛ السرجاني، قصة العلوم الطبية، 78.

(11)الساعور: يعني بالسريانية متفقد المرضى أي المشرف .

ومن أقسام المستشفى صيدلية يشرف عليها صيدلي مجاز، وكانت بعض المستشفيات أوقاف تعولها وكانوا يسجلون الوقف في حجج مكتوبة ينقشون بعض ما فيها على الحجارة ويكتب عليها:

((إني أكرس هذا البيمارستان للرفيع والوضيع واقف هذا الوقف لمنفعة الملك والمملوك وللجندي والأمير والعظيم والحقير و النساء))[2]، أي أن تكون مستشفى مجاني لعامة الناس دون تمييز.

ثانياً: قاعات التدريس الطب.

وقد أنشأ الخلفاء المدرس الطبية العديد من المدارس الطبيةالملحقة بالبيمارستانات الإسلامية، وكانت هذه المدارس تتبع منهجين في التعليم:

الأول: نظري، حيث يتلقى الطلاب الأصول النظرية لمهنة الطب عبر الكتب المترجمة في الطب أو الموضوعة لهذا الغرض.

الثاني: عملي في المستشفيات، حيث كان الطلاب يجتمعون حول رئيس الأطباء يراقبونه وهو يفحص مريضاً أو يصف دواء أو يجي عملية جراحية[3].وهذه القاعات خصصت لتدريس الطب وهو دليل على ان المستشفيات لم تعد مكاناً للعلاج فحسب إنما مكاناً لتعليم وتدريس فروع الطب حتى أصبحت المستشفيات بمثابة الجامعة لتخريج طلاب الطب، ويتلقى الطلبة دروسهم في إيوانات خاصة مزودة بالكتب الطبية، والآلات، والأدوات وكل وسائل الإيضاح الأخرى [4].

وكانت عيادتهم للمرضى من ضمن دراستهم ويسمى حالياً بالقسم بالتطبيق العملي[5]. إذ كان التلاميذ يصاحبون الطبيب اثناء زيارته لقاعات المرضى لإجراء الفحص والمعاينة فيعملون على تسجيل كل ما يقوله ويفعله الطبيب للمريض من تشخيص، وإعطاء الدواء، وإجراء العمليات الجراحية وملاحظة قواريرالفحص. فإذا ما أتقن هذا كله يؤذن له بعد مدة من الزمن قد تطول أو تقصر حسب جهد الطالب وكفاءته فيؤذن له بفحص المرضى وإعطاء العلاج[6].وهذا يكون أمام ساعور المستشفى ومجموعة من الأطباء والطلاب ملتفين حول الطالب والمريض لمشاهدة طبيعة الفحص ونتيجة ومن ثم إعطاء العلاج الصحيح.

ثالثاً: الصيدليات.

وهي أحد أهم أقسام المستشفى كونها متعقلة بتخصيص العلاج من خلال صرف الدواء للمرضى لذلك لا تخلو مستشفى من صيدلية[7]، والتي هي من مأثر المسلمين بأن جعلوا الصيدلة علم خاص منفصل عن الطب بعد أن وضعوا أسس علم الصيدلة من معرفة الأعشاب الطبية

ينظر: عيسى، تاريخ البيمارستانات، ص 19.

(1)عيسى، المرجع السابق، ص 31 ؛ عبد الباقي، معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري، ص 530.

(2)الشطي، موجز تأريخ الطب، ص 47.

(3)الحلو، الوافي في تأريخ العلوم عند العرب، ص39؛ السرجاني، المرجع السابق، ص 78.

(4)خليل، ياسين الطب والصيدلة عند العرب، من منشورات جامعة بغداد، مطبعة جامعة بغداد،، 1997م، ص 65.

(5)الشطي، موجز تاريخ الطب، ص ص 47-48 .

(6)نوشيراوي، أ . ر، البيمارستانات في الإسلام، ترجمة محمد منير بدرة، مجلة التراث العربي، العدد 21، دمشق، 1985م، ص ص 202-203؛ الهوني، تاريخ الطب، ص 208.

(7)مرحبا، المرجع في تأريخ العلوم، ص 325.

والأدوية المفردة والمركبة التي يعالجون بها المرضى وألفوا فيها الكتب[1] والتي تتوافر فيها كل أنواع الأدوية، والأشربة، والمعاجين وعلى اختلاف أنواعها [2].كذلك تتوافر في صيدلية المستشفى الآلات، والأدوات التي أعدت لصناعة الدواء وكذلك الأواني لحفظه وهي من الآلات النفيسة والأواني الصينية من الزبادي والبراني وغيرها من الأواني التي لا يقدر على إيوائها غير الملوك[3]، ومثلما هناك رئيس لكل طبيب في كل قسم من أقسام المستشفى كذلك الصيدلية لها رئيس الذي يدعى بالمهتار[4].

المبحث الثاني
طبيعة الخدمات العلاجية في المستشفيات

وطبيعة الخدمات الطبية في المشافي كانت تتلخص بالأتي:

أ ـ فحص الحالات البسيطة وعلاجه.

وهو ما يشبه العيادة الخارجية وهذا النوع من العلاج يجلس فيه الطبيب على دكة ويكتب لمن يرد عليه من المرضى للعلاج أوراقاً تصرف من صيدلية البيمارستان بما يناسب المريض من العلاجات بالأدوية والأشربة [5].

ب- علاج الحالات الصعبة بإدخال المريض للمستشفى.

العلاج داخل المستشفى حيث يقسم المرض حسب أمراضهم في قاعات خاصة داخل المستشفى بكل ما يلزم المريض، وكان كل قسم يحوي عدد من الأطباء غالباً ما يتجاوزون من ثلاثة حسب اتساع القسم وعدد المرضى الموجودين[6]، ويتم فحصه بشكل دقيق لتشخيص حالته بطرق عدة.

يعمل الأطباء في البيمارستان بالتناوب فعلى سبيل المثال كان الطبيب جبريل بن يختشيوع نوبته في الأسبوع يومين وليلتين[7]، وكان النظر في بول المريض من أحد وسائل معرفة أعراض المرض بعد أن ينظر إلى قارورة بول المريض وتسمى نتيجة البول (التفسرة) ومن خلالها يتعرف حالة المريض من صحة أو مرض [8].

تبين لنا أن من أحد أساليب الفحص على المريض، ما يسمى في عصرنا بالتحليل أو قريباً منه، فمن خلال مشاهدة إدرار المريض يعرف الطبيب حالته المرضية، حيث كان الفحص الطبي للمريض وصل إلى أعلى درجات الرقي العلمي، فكان الطبيب يجس نبض المريض، ويلل إدراره بالقارورة، ويتتبع تأريخ المرض، ومعرفة أهم العلل التي تعرض عليها المريض

---

(1)الملا، أثر العلماء المسلمين، ص 142.
(2)الحلو، الوافي في تأريخ العلوم، ص 55.
(3)كحالة، العلوم العملية، ص 107؛ السرجاني، قصة العلوم الطبية، ص 119
(4)عيسى، تأريخ البيمارستانات، ص 21؛ عفيفي، التطور العلمي عند المسلمين، ص 189.
(5)عيسى، تأريخ البيمارستانات، ص 21.
(6)محمد، الطب عند العرب، ص 318.
(7)كحالة، العلوم العملية، ص 32.
(8)القفطي، تأريخ الحكماء، ص 32.